

الفصل الثالث

اضطهاد الشيعة

بعد رحيل الإمام

obeikandi.com

لم يكن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بالذى يخاف الموت ، وهو الذى جندل صناديد الشرك من بنى أمية وعمر و بن عبد ود ويهود خبير ، وهو الذى طالما رأى أشقى الناس عبد الرحمن بن ملجم أمامه وكان يعلم مراده ، فقال ليسمعه :

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليل من مراد

ولذا وقبل أن يرحل إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام عن هذه الدنيا ليستريح من نصبها وتعبها ، أوصى شيعته وأعلمهم بما سيجرى عليهم من الابتلاء فيها هو يقول :

أما إنه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب البلعوم ، مندحق البطن يأكل ما يجد ، ويطلب ما لا يجد ، فاقتلوه ، ولن تقتلوه ! ألا وإنه سيأمركم بسبى والبراءة منى ؛ فأما السب فسيبوني ، فإنه لى زكاة ، ولكم نجاة ؛ وأما البراءة فلا تتبرءوا منى ، فإننى ولدت على الفطرة ، وسبقت إلى الإيمان والهجرة ^(١) .

أما لماذا اعتمد معاوية سياسة سب الإمام علي بن أبي طالب وشتمه على المنابر وعرض الناس للبراءة منه ، فالسبب كان أعمق بكثير من مجرد التشفى والانتقام من الإمام ، بل كان الهدف هو اجتثاث بذرة التشيع للإمام علي ولأهل البيت عليهم السلام من خلال القضاء على تلك النواة الشيعية الصلبة الملتفة حول الإمام .

الذين كانوا مع الإمام لم يكونوا جميعاً من العارفين بحقه على الصورة التى ذكرناها سابقاً ، بل كان من بينهم ممن لم يؤتوا من العلم والمعرفة إلا قليلاً ، وهذا هو دأب الناس فى كل زمان ومكان ، فمنهم العالم الربانى ، ومنهم العوام الذين يكتفون بمعرفة أبسط قواعد الإسلام ، ومنهم الشياطين الذين يسعون فى الأرض فساداً .

كان الصنف الأول هو المستهدف بالتصفية من معاوية بن أبى سفيان ، فما أن ينطق بكلمة احتجاج حتى يقتل وتلقى جثته تحت التراب أو يدفن حياً ، أما الصنف الثانى

(١) نهج البلاغة خطبة ٥٦ .

فكان مستهدفاً هو الآخر، ولكن بالتغيب ومحو الذاكرة من خلال سياسة الإصرار على سب الإمام على المنابر في كل صلاة جمعة.

تكشف لنا هذه السياسة الأموية الاستتصالية عن السب وراء حالة الفرع التي قد تنتاب البعض حينما يتهم بأنه من الشيعة، حيث كانت هذه التهمة تعنى القتل، أو تمضية ما تبقى من العمر في غياهب السجون، ومهما حاولنا أن نشرح للناس أو نفصل أن المقصود بكلمة شيعة هو التشيع لعلي بن أبي طالب وأهل البيت، وأن مثل هذا التشيع والانتماء هو مصدر فخر لصاحبه ولا يمكن أن يكون العكس صحيحاً، فالحاجز النفسى الذى تراكم عبر تلك القرون المتطاولة، والذى أسسه الأمويون وسار على منواله العباسيون، وكثير ممن تلوهم ممن حكم المسلمين ما زال قائماً بين أبناء الفرق والتيارات الإسلامية الفكرية والمذهبية.

معاوية وحربه على الشيعة

يروى المؤرخون:

لما ولى معاوية بن أبى سفيان على الكوفة المغيرة بن شعبة فى جمادى سنة ٤١ هـ دعاه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال له:

أما بعد فإن لذى الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا، وقد قال المتلمس:

لذى الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلمنا
وقد يجرى عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا
تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضينى ويسعد سلطانى ويصلح به رعتى،
ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تتحم عن شتم على بن أبى طالب وذمه
والعيب على أصحاب على والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم، وإطراء
شيعة عثمان والإدناء لهم والاستماع منهم^(١).

وظل المغيرة بن شعبة عاملاً على الكوفة سبع سنين وأشهرًا، لا يدع ذم على بن أبى طالب والوقوف فيه، فكان حُجْر بن عدى إذا سمع ذلك قال بل إياكم فذم الله ولعن، ثم قام فقال إن الله عز وجل يقول ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» ج ٥ ص ٢٥٤.

وأنا أشهد أن من تدمون وتعIRON لأحق بالفضل ، وأن من تزكون وتطرون هو أولى بالذم . فيقول المغيرة : يا حجر ويحك اتق السلطان ، اتق غضبه وسطوته ، فإن غضبه السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك . ثم يكف عنه ويصفح ، حتى كان فى آخر إمارته قام المغيرة فقال فى على وعثمان كما كان يقول ، فقام حجر بن عدى فنعر نكرة بالمغيرة سمعها كل من كان فى المسجد وخارجاً منه وقال : إنك لا تدرى بمن تولع من هرمك أيها الإنسان ، مر لنا بأرزاقنا وأعطينا فإنك قد حبستها عنا وليس ذلك لك ، ولم يكن يطمع فى ذلك من كان قبلك ، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين . فقام معه أكثر من ثلثى الناس يقولون صدق والله حجر وبر ، مر لنا بأعطينا فإننا لا ننتفع بقولك ذا ولا يجدى علينا شيئاً ، وأكثروا فى مثل هذا القول ونحوه .

ثم مات المغيرة سنة إحدى وخمسين . وجاء زياد بن أبيه - وفى قول : ابن سمية - والياً على الكوفة ، فقام خطيباً يوم الجمعة ، فأطال الخطبة وأخر الصلاة ، فقال له حجر ابن عدى الصلاة ، فمضى فى خطبته ، فلما خشى حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من حصى وثار إلى الصلاة وثار الناس معه ، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية فى أمره وألح عليه ، فأمر معاوية بن أبى سفيان باعتقاله ، فلما أخذ وجىء به إلى زياد بعد أن أعطاه الأمان ، فقال له زياد : مرحباً بك أبا عبد الرحمن !! حرب فى أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس ! على أهلها تجنى براقش ، فقال حجر ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة ، وإنى لعلى بيعتى ، فقال زياد هيهات يا حجر تشج بيد وتأسو بأخرى ، وتريد إذ أمكن الله منك أن نرضى !! لا والله . . ثم أمر به إلى السجن .

الطعن بعد الموت!!

قتل عمرو بن الحمق الخزاعى

ولم يكن لزياد من همة إلا طلب ما تبقى من أصحاب حُجر بن عدى الكندى ، فهرب عمرو بن الحمق ورفاعة بن شداد إلى جبال الموصل ، ثم لحق بهم عسكر بنى أمية ، فأخذوا عمرو بن الحمق وكان فى شدة المرض ، وأفلت رفاعة بن شداد ، فأمر معاوية بطعنه [أى : طعن عمرو] تسع طعنات ، فأخرج فطعن تسع طعنات ، فمات فى الأولى منها أو الثانية .

الموت أو السب!!

ثم أخذ صيفى بن فسيل من رءوس أصحاب حُجر وجيء به إلى زياد، فقال له يا عدو الله ما تقول فى أبى تراب؟؟ قال ما أعرف أبأ تراب؟؟ قال ما أعرفك به!! قال ما أعرفه، قال أما تعرف على بن أبى طالب؟ قال بلى، قال فذاك أبو تراب، قال كلا ذاك أبو الحسن والحسين، فقال له صاحب الشرطة يقول لك الأمير هو أبو تراب وتقول أنت لا؟ قال وإن كذب الأمير أتريد أن أكذب وأشهد له على باطل كما شهد!! قال له زياد وهذا أيضاً مع ذنبك، على بالعصا. فأتى بها فقال ما قولك فى على؟ قال أحسن قول أنا قائله فى عبد من عباد الله أقوله فى أمير المؤمنين، قال اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلصق بالأرض، فضرب حتى لزم الأرض، ثم قال أقلعوا عنه: ما قولك فى على؟؟ قال والله لو شرحتنى بالمواسى والمدى ما قلت إلا ما سمعت منى، قال لتلعننه أو لأضربن عنقك؟ قال إذا تضربها والله قبل ذلك، فإن آبيت إلا أن تضربها رضيت بالله وشقيت أنت، قال ادفعوا فى رقبته، ثم قال أوقروه حديداً وألقوه فى السجن^(١).

وبعد أن جمع زياد من أصحاب حُجر بن عدى اثنى عشر رجلاً فى السجن، دعا رؤساء الأرباع فشهد هؤلاء أن حُجراً جمع إليه الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل أبى طالب، وأظهر عذر أبى تراب (على بن أبى طالب) والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء الذين معه هم رءوس أصحابه وعلى مثل رأيه. ثم نظر زياد فى شهادة الشهود وقال: ما أظن هذه شهادة قاطعة، وأحب أن يكون الشهود أكثر من أربعة، فدعا الناس ليشهدوا عليه، وقال زياد: على مثل هذه الشهادة فاشهدوا، أما والله لأجهدن على قطع خيط عنق الخائن الأحمق.

تسيير حُجر وأصحابه إلى معاوية لقتلهم

ثم دفع زياد بن سمية حُجر بن عدى وأصحابه من شبيعة على إلى وائل بن حجر

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» ج ٥ ص ٢٦٦ ط دار المعارف ١٩٧٩ م.

الحضرمي وكثير بن شهاب ، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى الشام ، فخرجوا عشية وسار معهم صاحب الشرطة حتى أخرجهم من الكوفة .

ثم ساروا حتى انتهوا إلى مرج عذراء عند دمشق ، وهم اثنا عشر رجلاً ، وأتبعهم زياد برجلين مع عامر بن الأسود ، فتم عددهم أربعة عشر رجلاً ، فحبسوا بمرج عذراء ، فبعث معاوية إلى وائل بن حجر وكثير بن شهاب فأدخلهما وأخذ كتابهما فقرأه على أهل الشام فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإن الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء ، فأداله من عدوه وكفاه مؤونة من بغى عليه ، إن طواغيت الترابية السبئية ، رأسهم حجر بن عدى خالفوا أمير المؤمنين ، وفارقوا جماعة المسلمين ، ونصبوا لنا الحرب ، فأظهرنا الله عليهم وأمكننا منهم ، وقد دعوت خيار أهل مصر وأشرافهم وذوى النهى والدين ، فشهدوا عليهم بما رأوا وعلموا ، وقد بعثت بهم إلى أمير المؤمنين ، وكتبت شهادة صلحاء أهل مصر وخيارهم فى أسفل كتابي هذا .

فلما قرأ معاوية الكتاب وشهادة الشهود عليهم ، قال ماذا ترون فى هؤلاء النفر الذين شهد عليهم قومهم بما تسمعون ؟ فقال له يزيد بن أسد البجلي : أرى أن تفرقهم فى قرى الشام فيكفيهم طواغيتهم .

وكتب معاوية إلى زياد : أما بعد فقد فهمت ما اقتصصت به من أمر حُجر وأصحابه وشهادة من قبلك عليهم ، فنظرت فى ذلك ، فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم ، وأحياناً أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم ، والسلام .

فكتب إليه زياد مع يزيد بن حجية التميمي : أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت رأيك فى حُجر وأصحابه ، فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم وقد شهد عليهم بما قد سمعت من هو أعلم بهم ، فإن كانت لك حاجة فى هذا المصر فلا تردن حُجراً وأصحابه إلى .

فقام مالك بن هبيرة فسأله فى حُجر فلم يشفعه ، فغضب وجلس فى بيته ، فبعث معاوية هذبة بن فياض القضاعى من بنى سلامان بن سعد والحصين بن

عبد الله الكلابي وأبا شريف البدّي، فأتوهم عند المساء، فقال الخثعمي حين رأى الأعور مقبلاً: يقتل نصفنا وينجو نصفنا، فقال سعيد بن نمران اللهم اجعلني ممن ينجو وأنت عنى راض، فقال عبد الرحمن بن حسان العنزي اللهم اجعلني ممن تكرم بهوانهم وأنت عنى راض، فطالما عرضت نفسي للقتل فأبى الله إلا ما أراد. فجاء رسول معاوية إليهم بتخلية ستة وبقتل ثمانية، فقال لهم رسل معاوية: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علىّ واللعن له، فإن فعلتم هذا تركناكم وإن أبيتم قتلناكم، وإن أمير المؤمنين يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم، غير أنه قد عفا عن ذلك، فابروا من هذا الرجل نخل سبيلكم. قالوا: لسنا فاعلين. فأمروا بقيودهم فحلت وبقيورهم فحفرت وأدنت أكفانهم، فقاموا الليل كله يصلون، فلما أصبحوا، قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء قد رأييناكم البارحة أطلتم الصلاة وأحسستم الدعاء، فأخبرونا ما قولكم في عثمان؟ قالوا: هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق، فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين كان أعلم بكم، ثم قاموا إليهم وقالوا: تبرءون من هذا الرجل؟ قالوا: بل نتولاه. فأخذ كل رجل منهم رجلاً ليقتله.

قال لهم حُجر: دعوني أصلي ركعتين.

فقالوا له: صل. فصلّى ثم انصرف، فقال والله ما صليت صلاة قط أقصر منها، ولولا أن تروا أن ما بى جزع من الموت لأحببت أن أستكثر منها، ثم قال اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني بها إني لأول فارس من المسلمين سلك في واديها، وأول رجل من المسلمين نبخته كلابها. فمشى إليه هذبة الأعور بالسيف فأرعدت فصائله، فقال زعمت أنك لا تجزع من الموت فأنا أدعك فابراً من صاحبك، فقال ما لى لا أجزع؟ وأنا أرى قبراً محفوراً وكفنّاً منشوراً وسيفاً مشهوراً، وإني والله إن جزعت لا أقول ما يسخط الرب، فقبل له مد عنقك، فقال إن ذلك لدم ما كنت لأعين عليه. فقدم فضربت عنقه، وأقبلوا يقتلونهم واحداً واحداً حتى قتلوا ستة.

قال عبد الرحمن بن حسان العنزى وكريم بن عفيف الخثعمى : ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين ، فتحن نقول فى هذا الرجل مثل مقالته ، فبعثوا إلى معاوية فأخبروه ، فبعث ائتونى بهما .

فلما دخل عليه الخثعمى قال له : الله الله يا معاوية ، إنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة ، ومسئول عما أردت بقتلنا وفيهم سفكت دماءنا؟ فقال معاوية : ما تقول فى على؟ قال أقول فيه قولك ، أعتبراً من دين على الذى كان يدين الله به؟ فسكت وكره معاوية أن يجيبه . فقام شمر بن عبد الله الخثعمى فاستوهبه فقال : هو لك غير أنى حابسه شهراً فحبسه ، فكان يرسل إليه بين كل يومين فيكلمه ، ثم أطلقه على أن لا يدخل الكوفة ما دام له سلطان ، فنزل الموصل فكان يقول لو قد مات معاوية قدمت المصر ، فمات قبل معاوية بشهر .

عقوبة الدفن حياً

ثم أقبل على عبد الرحمن بن حسان فقال له : إيه يا أخا ربيعة ، ما قولك فى على؟ قال دعنى ولا تسألنى فإنه خير لك . قال والله لا أدعك حتى تخبرنى عنه . قال أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيراً ومن الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والعافين عن الناس . قال فما قولك فى عثمان؟ قال هو أول من فتح باب الظلم وأرتج أبواب الحق . قال قتلت نفسك . قال بل إياك قتلت . لا ربيعة بالوادى - يعنى أنه ليس ثم أحد من قومه فيتكلم فيه - فبعث به معاوية إلى زياد وكتب إليه : أما بعد ، فإن هذا العنزى شر من بعثت به ، فعاقبه بالعقوبة التى هو أهلها واقتله شر قتلة ، فلما قدم به على زياد ، بعث به إلى قس الناطف فدفنه حياً .

فقتل من أصحاب حجر :

شريك بن شداد الحضرمى - صيفى بن فسيل الشيبانى - قبيصة بن ضبيعة العبسى - محرز بن شهاب المنقرى - كدام بن حيان العنزى - عبد الرحمن بن حسان العنزى .

ونجنا منهم :

كريم بن عفيف الخثعمي - عبد الله بن حوية التميمي - عاصم بن عوف البجلي -
ورقاء بن سمي البجلي - أرقم بن عبد الله الكندي - عتبة بن الأخنس السعدي - سعد بن
نمران الهمداني^(١).

مرثية حجر بن عدى

روى ابن جرير الطبري^(٢) في أحداث عام ٥١ للهجرة :
وقالت هند بنت زيد بن مخزومة الأنصارية ترثي حُجراً :

ترفع أيها القمر المنير	تبصر هل ترى حُجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حُجـر	وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد بها محولا	كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حُجـر بنى عدى	تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أدرى عدياً	وشيخاً فى دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقاً	له من شر أمته وزير
ألا يا ليت حُجراً مات موتاً	ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا إلى هلك يصير
وقالت الكندية ترثي حـجراً :	

دموع عيني ديمة تقطر	تبكى على حجر وما تفتـر
لو كانت القوس على أسره	ما حمل السيف له الأعور

(١) الأغاني للأصفهاني ١٦ : ٢ - ١١ ، عيون الأخبار لابن قتيبة ١ ، تاريخ الطبري ٦ : ١٤١ - ١٥٦ ،
مستدرک الحاکم ٣ : ٤٦٨ ، تاريخ ابن عساکر ٤ : ٨٤ وج ٦ : ٤٥٩ ، الكامل لابن الأثير ٣ :
٢٠٢ - ٢٠٨ ، تاريخ ابن كثير ٨ : ٤٩ - ٥٥ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبري» ج ٥ ص ٢٨٠ .

عمر بن عبد العزيز يبطل سب الإمام

ظلت سياسة سب الإمام على بن أبي طالب على المنابر جزءاً ثابتاً من المنهج الأموي لم يجر العدول عنه إلا أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز، حيث يروى ابن الأثير^(١):

كان بنو أمية يسيون أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، فترك ذلك وكتب إلى العمال في الآفاق بتركه.

وكان سبب محبته علياً كما قال: كنت بالمدينة أتعلم العلم وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فبلغه عنى شيء من ذلك فأتيته يوماً وهو يصلي، فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ من صلاته التفت إليّ فقال لى: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم؟؟

قلت: لم أسمع ذلك. قال: فما الذى بلغنى عنك فى على؟ فقلت: معذرة إلى الله وإليك! وتركت ما كنت عليه.

وكان أبى إذا خطب فنال من على رضي الله عنه تلجلج، فقلت: يا أبتى إنك تمضى فى خطبتك فإذا أتيت على ذكر على بن أبى طالب عرفت منك تقصيراً!! قال: أو فطنت لذلك؟ قلت: نعم. فقال: يا بنى إن الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده!!

فلما ولي عمر الخلافة، لم يكن عنده من الرغبة فى الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجلها، فترك ذلك وكتب بتركه، وقرأ عوضه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]، فحل هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً وأكثروا مدحه بسببه.

بعد مقتل الإمام على

ولما قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى عام ٤٠هـ، بايع المسلمون بالخلافة للإمام الحسن بن على، حيث يروى ابن الأثير:

(١) الكامل فى التاريخ ج ٣.

وكان أول من بايعه قيس بن سعد الأنصارى وقال له : ابسط يدك أبايعك
على كتاب الله وسنة نبيه وقاتل المحلين . فقال الحسن : على كتاب الله وسنة
رسوله فإنهما يأتيان على كل شرط . فبايعه الناس . وكان الحسن يشترط
عليهم : إنكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت .

قال الشيخ المفيد (ولما قبض أمير المؤمنين عليه السلام بايعه أصحاب أبيه على حرب من
حارب وسلم من سالم) .

وبعد أن بويع له خطب الإمام الحسن بن علي صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير
المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله وآله ثم قال :

«لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل .
لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجهه
برأيته فيكنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله على يديه ،
ولقد توفي عليه السلام في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قبض يوشع بن
نون وصى موسى وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه ،
أراد أن يتناع بها خادماً لأهله» ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه .

ثم قال : «أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه أنا ابن السراج
المنير ، أنا من أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، أنا من أهل بيت
افترض الله حبهم في كتابه قال عز وجل : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي
الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى : ٢٣] . فالحسنة مودتنا أهل
البيت» .

ثم جلس فقام عبد الله بن عباس رحمة الله عليه بين يديه فقال : معاشر الناس ، هذا
ابن نبيكم ووصى إمامكم فبايعوه فاستجاب له الناس وقالوا : ما أحبه إلينا وأوجب
حقه علينا . وتبادروا إلى البيعة له بالخلافة وذلك يوم الجمعة الحادى والعشرين من شهر
رمضان سنة أربعين من الهجرة . فرتب العمال وأمر الأمراء ، وأنفذ عبد الله بن العباس
رضي الله عنه إلى البصرة ، ونظر في الأمور . وسار معاوية نحو العراق ليغلب عليه ، فلما بلغ
جسر منبج تحرك الحسن عليه السلام وبعث حُجر بن عدى فأمر العمال بالمسير ، واستنفر
الناس للجهاد فثاقلوا عنه ، ثم خف مع أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه
عليهما السلام وبعضهم محكمة (أى من الخوارج رافعى شعار إن الحكم إلا لله) يؤثرون

قتال معاوية بكل حيلة ، وبعضهم أصحاب فتن وطمع فى الغنائم ، وبعضهم شكاك وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين . فسار حتى أتى حمام عمر ، ثم أخذ على دير كعب فنزل ساباط دون القنطرة وبات هناك .

فلما أصبح أراد ﷺ أن يمتحن أصحابه ويستبرئ أحوالهم فى الطاعة له ، لىتميز بذلك أولياؤه من أعدائه ويكون على بصيرة فى لقاء معاوية وأهل الشام . فأمر أن ينادى فى الناس بالصلاة جامعة فاجتمعوا ، فصعد المنبر فخطبهم فقال : « الحمد لله بكل ما حمده حامد وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق واثمنه على الوحى صلى الله عليه وآله .

أما بعد : فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلق الله لخلقهم وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له بسوء ولا غائلة ، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة ، ألا وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمرى ولا تردوا على رأى ، غفر الله لى ولكم وأرشدنى وإياكم لما فيه المحبة والرضا» .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه والله يريد أن يصلح معاوية ويسلم الأمر إليه ، فقالوا : كفر والله الرجل ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدى فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقى جالساً متقلداً السيف بغير رداء . ثم دعا بفرسه فركبه وأحرق به طوائف من خاصته وشيعته ومنعوا منه من أراده ، فقال : « ادعوا إلى ربيعة وهمدان » فدعوا له فأطافوا به ودفعوا الناس عنه وسار ومعه شوب من الناس ، فلما مر فى مظلم ساباط ، بدر إليه رجل من الخوارج فأخذ بلجام بغلته ويده مغول وقال : الله أكبر أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل ، ثم طعنه فى فخذه فشقه حتى بلغ العظم فاعتنقه الحسن ﷺ وخرّاً جميعاً إلى الأرض ، فوثب إليه رجل من شيعة الحسن ﷺ يقال له عبد الله بن خطل الطائى فانتزع المغول من يده وخضخض به جوفه .

وحمل الحسن ﷺ على سرير إلى المدائن ، فأنزل به على سعد بن مسعود الثقفى واشتغل بنفسه يعالج جرحه ، وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطاعة له

فى السر وحثوه على السير نحوهم وضمنوا له تسليم الإمام الحسن عليه السلام إليه عند دنوهم من عسكره، أو الفتك به. وبلغ الحسن ذلك فازدادت بصيرة الحسن عليه السلام بخذلان القوم له وفساد نياتهم، ولم يبق معه من يأمن غوائله إلا خاصة من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشام.

فكتب إليه معاوية فى الهدنة والصلح، وأنفذ إليه بكتب أصحابه التى ضمنوا له فيها الفتك به وتسليمه إليه، واشترط له على نفسه فى إجابته إلى صلحه شروطاً كثيرة، وعقد له عقوداً كان فى الوفاء بها مصالح شاملة، فلم يثق به الحسن عليه السلام وعلم احتياله إلى ما التمس من ترك الحرب وإنفاذ الهدنة، لما كان عليه أصحابه مما وصفناه من ضعف البصائر فى حقه والفساد عليه والخلف منهم له وما انطوى كثير منهم عليه فى استحلال دمه وتسليمه إلى خصمه وميل الجمهور منهم إلى العاجلة وزهدهم فى الآجلة. فتوثق عليه السلام لنفسه من معاوية لتأكيد الحجة عليه والإعذار فيما بينه وبينه عند الله عز وجل وعند كافة المسلمين، واشترط عليه ترك سب أمير المؤمنين عليه السلام والعدول عن القنوت عليه، فى الصلوات، وأن يؤمن شيعته رضى الله عنه ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذى حق منهم حقه، فأجابه معاوية إلى ذلك كله وعاهده عليه وحلف له بالوفاء به.

كما يروى ابن الأثير^(١): تسلم معاوية الأمر لخمس بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وقيل: إنما سلم الحسن الأمر إلى معاوية لأنه لما راسله معاوية فى تسليم الخلافة إليه، خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: إنا والله ما يثينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيب السلام بالعداوة والصبر بالجزع، وكنتم فى مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهر وان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل وأما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل بحد السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية! وأمضى الصلح. ولما عزم على تسليم الأمر إلى معاوية خطب الناس فقال: أيها الناس

(١) الكامل فى التاريخ ج ٣.

إنما نحن أمراؤكم وضيغانكم ونحن أهل بيت نبيكم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وكرر ذلك حتى ما بقى فى المجلس إلا من بكى حتى سمع نسيجه .

وكانت خلافة الحسن على قول من يقول إنه سلم الأمر فى ربيع الأول خمسة أشهر ونحو نصف شهر ، وعلى قول من يقول فى ربيع الآخر يكون ستة أشهر وشيئاً ، وعلى قول من يقول فى جمادى الأولى يكون سبعة أشهر وشيئاً ، والله تعالى أعلم .

خطبة معاوية ورد الإمام الحسن عليه

فلما تمت الهدنة على ذلك ، سار معاوية حتى نزل بالنخيلة وكان ذلك يوم جمعة ، فصلى بالناس ضحى النهار ، فخطبهم وقال فى خطبته : إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا ، إنكم لتفعلون ذلك ، ولكنى قاتلتكم لتأمر عليكم ، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم له كارهون ألا وإنى كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء ، وجميعها تحت قدمى لا أفى بشىء منها له .

ثم سار حتى دخل الكوفة فأقام بها أياماً ، فلما تمت البيعة له من أهلها ، صعد المنبر فخطب الناس وذكر أمير المؤمنين عليه السلام فقال منه ونال من الحسن وكان الحسن والحسين سلام الله عليهما حاضرين ، فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذ بيده الحسن فأجلسه ثم قام فقال : «أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبى على وأنت معاوية وأبوك صخر وأمى فاطمة وأمك هند وجدى رسول الله وجدك حرب وجدتى خديجة وجدتك قتيلة ، فلعن الله أحملاً ذكراً والأماً حسباً وشرناً قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً» فقال طوائف من أهل المسجد : آمين آمين ^(١) .

الخلافة والإمامة

بانتهاى خلافة الإمام الحسن بن على عليه السلام ونزوله عن السلطة لمعاوية بن أبى سفيان ، انتهى ذلك اللقاء المؤقت بين الخلافة والإمامة والذى لم يدم سوى خمسة أعوام ونصف العام ، وهى فترة حكومة الإمام على والإمام الحسن من بعده .

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ، ومقاتل الطالبين للأصفهاني .

بقى الإمام إماماً للدين وهو الأحق بإمامة الدنيا، إلا أن إمامة الدنيا تحتاج إلى أدوات تختلف عن تلك التي تحتاجها إمامة الدين !! .

إمامة الدين هبة وفضل إلهي يمن بها الله على من يشاء من عباده .

أما السلطة الدنيوية فيمكن أن تكون بالقوة والغضب الجبري !! .

وكما ورد في الأثر (إن الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن يحب) .

رأينا إذاً كيف ساد التخاذل صفوف المسلمين وتفرقت كلمتهم وضعفت نيتهم عن وأد الفتنة في مهدها، مما حتم على الإمام الحسن إعادة النظر في الموقف كله والبحث عن خيارات أخرى تحفظ دماء المسلمين وتحول دون فناء تلك القلة المؤمنة العارفة بفضل أئمة أهل البيت ووجوب طاعتهم .

لم يكن الأمر كما يصوره البعض الآن إقراراً بشرعية النظام الأموي ولا تسليمًا بصحة السلطة القائمة على الجبر والغضب والإكراه، ولكنها حكمة التعامل مع الأمر الواقع، ولذلك فقد اشترط عدة شروط، أوردها الشيخ الصدوق في كتاب (علل الشرائع) .

يروى أبو الفرج الأصفهاني عن سفيان بن أبي ليلى قال : أتيت الحسن بن علي حين بايع معاوية فوجدته بفناء داره وعنده رهط فقلت : السلام عليك يا مذل المؤمنين . فقال وعليك السلام يا سفيان ونزلت فعقلت راحلتى ثم جلست إليه فقال كيف قلت يا سفيان ؟ قلت السلام عليك يا مذل المؤمنين . فقال لم جرى هذا منك إلينا ؟ قلت أنت والله بأبى وأمى أذلت رقابنا حين أعطيت هذا الطاغية البيعة وسلمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك ، فقد جمع الله عليك أمر الناس ، فقال يا سفيان إنا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسكنا به وإنى سمعت علياً يقول لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرة ضخم البلعوم يأكل ولا يشبع لا ينظر الله إليه ولا يموت حتى لا يبقى له في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر وإنه لمعاوية بن أبي سفيان وإنى عرفت أن الله بالغ أمره . ثم قال ما جاء بك يا سفيان ؟؟ قلت حبكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، قال أبشر يا سفيان فإنى سمعت علياً يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يرد على الخوض أهل

بيتى ومن أحبهم من أمتى كهاتين - يعنى السبابة والوسطى - إحداهما تفضل على الأخرى أبشريا سفيان فإن الدنيا تسع البر والفاجر حتى يبعث الله إمام الحق من آل محمد .

ذهبت السلطة لمن أرادها وسعى لها سعيها من أهل الدنيا ولحق به من لحق طمعاً فى فضلاته وغنائمه ، وبقيت الإمامة عند أهل الإمامة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وصدق الله العلى العظيم ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) [الإسراء : ١٨ - ٢١] .

إمامة الدين كانت وما زالت حاضرة فى ضمائر المؤمنين ، أما السلطة الدنيوية فهى ظل زائل وعرض لا يدوم .

كتب بعض الكتاب عن صلح الإمام الحسن مع معاوية بن أبى سفيان متجاهلين كل تلك الوقائع التى ذكرناها ، والتى ساقى الإمام الحسن لاتخاذ قراره التاريخى بوضع الحرب ، زاعمين أن الأمر كان إقراراً منه بشرعية النظام الأموى المتغلب .

لم يكن الإمام الحسن بن على عليه السلام أقل مضاء ولا عزمًا على إحقاق الحق وإبطال الباطل من أبيه على ولا من أخيه الحسين ، والفارق بين هؤلاء الأئمة لم يكن سوى اختلاف الظرف الذى عاشه وعينه كل منهم ، وتبقى المبادئ والأسس التى ساروا عليها كلهم واحدة .

نهاية الموقف

ولما استقر الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية ، خرج عليه السلام إلى المدينة فأقام بها منتظرًا لأمر ربه إلى أن تم لمعاوية عشر سنين من إمارته وعزم على البيعة ليزيد ، فدرس إلى

الإمام الحسن من سمه فبقى عليه السلام مريضاً أربعين يوماً ومضى عليه السلام للقاء ربه في صفر سنة خمسين من الهجرة وله يومئذ ثمان وأربعون سنة ، فكانت مدة إمامته عشر سنين ، وتولى أخوه ووصيه الحسين عليه السلام غسله وتكفينه ودفنه عند جدته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رحمة الله عليها بالقيع .
